

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٦٧ - سُورَةُ الْمَلِكِ

قال المهايي : سميت به لاشتمالها على كثير مما ينبغي أن يكون عليه الملك من كثرة الخيرات ، وعموم القدرة ، والإحياء والإماتة ، واختبار أعمال الناس ، والغلبة والغفران ، ورفع الأبنية لخدمته وعدم التفاوت في رعاياه ، وتزيين بلاده ، والقهر على الأعداء ، والترحم على الأولياء ، والأمن ورخص الأسعار ، وأن لا يقدر أحد على نصر من عاداه ، ولا على رزق من منعه . انتهى .

وتسمى سورة ( تبارك ) . وهي مكية . وآياتها ثلاثون .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] ( تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى تعاضم الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، وسلطانهما ، نافذ فيهما أمره وقضاؤه ، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة ، لا يمنعها مانع ، ولا يحول بينه وبينه عجز .

وقال القاشانى : الملك ، عالم الأجسام ، كما أن الملكوت عالم النفوس . ولذلك وصف ذاته باعتبار تصرفه عالم الملك ، بحسب مشيئته بالتبارك ، الذى هو غاية العظمة ، ونهاية الازدياد فى العلو والبركة . وباعتبار تسخيريه عالم الملكوت ، بمقتضى إرادته بالتسييح ، الذى هو التنزيه ، كقوله<sup>(٢)</sup> ( فَسَبِّحْهُنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ) كلاً بما يفاسبه ، لأن العظمة والازدياد والبركة تناسب الأجسام ، والتنزه يناسب المجردات عن المادة . فعنى (تبارك) تعالى وتعاضم ، الذى يتصرف فى عالم الملك بيد قدرته ، لا يتصرف فيه غيره فبيده كل ما وجد من الأجسام ، لا بيد غيره ، يصرفها كما يشاء ، وهو القادر على كل ما عدم من الممكنات ، يوجدتها على ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] ( الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ )

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى : قدر الموت والحياة

(١) انظر الصفحة رقم ١ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ٣٦ / يس / ٨٣ ] .

فأمات من شاء وما شاء ، وأحيى من أراد وما أراد ، إلى أجل معلوم . أو أوجد الحياة ، وأزالها حسباً قدره .

قال الفاساني : الموت والحياة من باب العدم والمملكة . فإن الحياة هي الإحساس والحركة الإرادية ولو اضطرارية كالتنفس . والموت عدم ذلك عما من شأنه أن يكون له . وعدم المملكة ليس عدماً محضاً ، بل فيه شائبة الوجود . والألم يعتبر فيه المحل القابل للأمر الوجودي ، فلذلك صح تعلق الخلق به ، كعقلته بالحياة ، وجعل الغرض من خلقهما ، بلاء الإنسان في حسن العمل وقبحه ، أي العلم التابع للمعلوم الذي يترتب عليه الجزاء ، وهو العلم الذي يظهر على المظاهر الإنسانية بعد وقوع المعلوم ، فإنه ليس بإعلم الله الكامن في الغيب ، الظاهر بظهور المعلوم ، لأن الحياة هي التي يتمكن بها على الأعمال ، والموت هو الداعي إلى حسن العمل الباعث عليه ، وبه يظهر آثار الأعمال ، كما أن الحياة يظهر بها أصولها ، وبهما تتفاضل النفوس في الدرجات ، وتتفاوت في الهلاك والنجاة . وقدم الموت على الحياة ، لأن الموت في عالم الملك ذاتي ، والحياة عرضية . وقيل : إن أريد به العدم السابق ، فتقدمه ظاهر ، لسبقه على الوجود . أو العدم اللاحق ، فتقدمه لأن فيه عظة وتذكيرة ، وردعاً عن ارتكاب المعاصي .

« وَهُوَ الْعَزِيزُ » أي : الغالب الذي يقهر من أساء العمل « الْغَفُورُ » أي لذنوب من أناب إليه وأحسن العمل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ( الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ،

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ )

« الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا » قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> : طبقاً فوق طبق ، بعضها

فوق بعض .

(١) انظر الصفحة رقم ٢ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وقال المهايي: أى يوافق بعضها بعضاً بلا تضاد ، ليم أمر الحكمة في الكواكب والفواسد .

وقال بعض علماء الفلك : اعلم أن لفظ ( السماء ) يطلق لغة على كل ما علا الإنسان ، فإنه من السموات ، وهو العلو ، فسقف البيت سماء . ومنه قوله تعالى (١) « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ » أى فليمدد بجبل إلى سقف بيته . وهذا الفضاء اللانهاى سماء . ومنه قوله تعالى (٢) : « كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ » . والسحاب سماء ، ومنه قوله تعالى (٣) « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » والكواكب سماوات . فالسموات السبع المذكورة كثيراً في القرآن الشريف ، هي هذه السيارات السبع ، وهي طباق ، أى : أن بعضها فوق بعض ، لأن فلك كل منها فوق فلك غيره .

« مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ » أى : تخالف وعدم تناسب في رعاية الحكمة ، بل راعاها في كل خلقه .

« فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ » أى إن شككت ، فكرر النظر « هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ؟ » أى : خلل . وأصل ( الفطور ) الصدوع والشقوق . أريد به لازمه . كذا قالوه ، والصحيح أنه على حقيقته أى : هل ترى من انشقاق وانقطاع بين السموات ، بحيث تذهب باتصالات الكواكب فتفرقها ، وتقطع علاقاتها وأجبال تجاذبها ؟ كلا ! بل هي متجاذبة ، مرتبط بعضها ببعض من كل جهة ، كما تقدم في سورة ( ق ) في آية (٤) : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » .

(٢) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٤ ] .

(١) [ ٢٢ / الحج / ١٥ ] .

(٤) [ ٥٠ / ق / ٦ ] .

(٣) [ ٢ / البقرة / ٢٢ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ )

« ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ » أى كرهه « كَرَّتَيْنِ » أى : رجعتين أخريين ، ابتغاء الخلل والفساد والبعث . والمراد بالتثنية التكرير . « يَنْقَلِبْ » أى : يرجع « إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا » أى : مطروداً عن إصابة المطلوب . « وَهُوَ حَسِيرٌ » أى : معي كالشئ .

تنبيهات :

الأول - ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى ( مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ) صفة ثانية لقوله : ( سَبْعَ سَمَوَاتٍ ) وضع فيها - خلق الرحمن - موضع الضمير للتعظيم ، والأصل ( فِيهِنَّ ) وتابمه القاضى والقاشانى ، وعبارته :

نهاية كمال عالم الملك في خلق السموات ، لا ترى أحكم خلقاً ، وأحسن نظاماً وطباقاً منها . وأضاف خلقها إلى الرحمن ، لأنها من أصول النعم الظاهرة ، ومبادئ سائر النعم الدنيوية ، وسلب التفاوت عنها لمطابقة بعضها بعضاً ، وحسن انتظامها وتناسبها . وإنما قال ( ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ) لأن تكرار النظر ، وتجوال الفكر ، مما يفيد تحقق الحقائق وإذا كان ذلك فيها عند طلب الخروق والشقوق ، لا يفيد إلا الخسوء والحسور ، تحقق الامتناع ، وما أتعب من طلب وجود الممتنع . انتهى .

ولو جعل قوله تعالى : ( مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ ) مستأنفاً ، مقررأً بعمومه لتناسب خلقه وإتقانه ، وتناهى حسنه ، فيشمل ما قبله - لكان أولى من تخصيصه بوصفية ما قبله ، ويكون كآية (١) : ( أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ ) آية (٢) : ( صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ) وتلطف بعضهم فقال : في الآية إشارة إلى قياس تقديره : ما ترى فيها من تفاوت لأنها من خلقه تعالى . وما ترى في خلقه من تفاوت .

(١) [ ٣٢ / السجدة / ٧ ] . (٢) [ ٢٧ / النمل / ٨٨ ] .

الثانى - للإمام ابن حزم رحمه الله كلام فى هذه الآية فى كتاب ( الفِصَل ) ساقه فى مباحثه مع المعتزلة ، نأثره هنا لنفاسته ، قال رحمه الله :

التفاوت المعهود هو ما نافر النفوس ، أو خرج عن المعهود ، فنحن نسمى الصورة المضطربة بأن فيها تفاوتاً ، فليس هذا التفاوت الذى نقاه الله تعالى عن خلقه ، فإنّ ليس هو الذى يسميه الناس تفاوتاً ، فلم يبق إلا أن التفاوت الذى نقاه الله تعالى عما خلق هو شيء غير موجود فيه البتة ، لأنه لو وجد فى خلق الله تعالى تفاوت ، لكذب قول الله عز وجل ( مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ) ولا يكذب الله تعالى إلا كافر ، فبطل ظن المعتزلة أن الكفر والظلم والكذب والجور تفاوت ، لأن كل ذلك موجود فى خلق الله عز وجل ، مرئى فيه ، مشاهد بالعيان فيه ، فبطل احتجاجهم .

فإن قال قائل : فما هذا التفاوت الذى أخبر الله عز وجل أنه لا يرى فى خلقه ؟

قيل لهم : هو اسم لا يقع على مسمى موجود فى العالم أصلاً ، بل هو معدوم جملة ، إذ لو كان شيئاً موجوداً فى العالم ، لوجد التفاوت فى خلق الله تعالى . والله تعالى قد أكذب هذا ، وأخبر أنه لا يرى فى خلقه .

ثم نقول ، وبالله تعالى التوفيق : إن العالم كله مادون الله تعالى ، وهو كله مخلوق لله تعالى ، أجسامه وأعراضه كلها ، لا نحاشى شيئاً منها . ثم إذا نظر الناظر فى تقسيم أنواع أعراضه ، وأنواع أجسامه ، جرت القسمة جرياً مستويّاً فى تفضيل أجناسه وأنواعه ، بحدودها المميزة لها ، وفصولها المفرقة بينها ، على رتبة واحدة ، وهىة واحدة ، إلى أن يبلغ إلى الأشخاص التى تلى أنواع ، الأنواع ؛ لا تفاوت فى شيء من ذلك البتة ، بوجه من الوجوه ، ولا تخالف فى شيء منه أصلاً . ومن وقف على هذا علم أن الصورة المستقبحة عندنا ، والصورة المستحسنة عندنا . واقعتان معاً تحت نوع الشكل والتخطيط ، ثم تحت نوع الكيفية ، ثم تحت اسم العرض ، وقوعاً مستويّاً لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت فى هذا بوجه من التقسيم .

وكذلك أيضاً نعم أن الكفر والإيمان بالقلب واقعتان تحت نوع الاعتقاد ، ثم تحت

فعل النفس ، ثم تحت الكيفية والعرض ، وقوعا مستويا لا تفاضل فيه ، ولا تفاوت من هذا الوجه من التقسيم . وكذلك أيضا نعلم أن الإيمان والكفر باللسان واقمان تحت نوع فرع الهواء بآلات الكلام ، ثم تحت نوع الحركة وتحت نوع الكيفة ، وتحت اسم العرض ، وقوعا حقا مستويا لا تفاوت فيه ولا اختلاف .

وهكذا القول في الظلم والإنصاف ، وفي العدل والجور ، وفي الصدق والكذب ، وفي الزنا والوطء الحلال . وكذلك كل ما في العالم ، حتى يرجع جميع الموجودات إلى الرؤوس الأول التي ليس فوقها رأس يجمعها إلا كونها مخلوقة لله تعالى . وهي الجوهر والكم والكيف والإضافة . فاتتقى التفاوت عن كل ما خلق الله تعالى ، وعادت الآية المذكورة حجة على المعتزلة ، ضرورة لا منفيك لهم عنها ، وهي أنه لو كان وجود الكفر والكذب والظلم تفاوتاً كما زعموا ، لكان التفاوت موجوداً في خلق الرحمن . وقد كذب الله تعالى ذلك ، وهي أن يرى في خلقه تفاوت . انتهى كلامه .

الثالث - قال الناصر: في قوله تعالى (يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا) وضع للظاهر موضع المضمّر. وفيه من الفائدة التنبيه على أن الذي يرجع خاسئاً حسيراً غير مدركٍ الفطور، هو الآلة التي يلتبس بها إدراك ما هو كائن ، فإذا لم يدرك شيء ، دل على أنه لا شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ ،  
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » قال ابن جرير (١) : وهي النجوم . وجعلها (مَصَابِيحَ) لإضاءتها . وكذلك الصبح ، إنما قيل له صبح ، للضوء الذي يضيء للناس من النهار . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ » قال ابن كثير : عاد الضمير في قوله تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(وَجَعَلْنَاهَا) على جنس المصاييح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ، بل يشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها - والله أعلم - .

وقال القاضي : أى وجعلنا لها فائدة أخرى هي رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل : معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإنس - وهم المنجمون - .

قال الشهاب : مرضه لأنه خلاف الظاهر المأثور . و (الرجم) يكون بمعنى الظن ، مجازاً معروفاً . والآية بمعنى آية الصافات<sup>(١)</sup> (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةٍ الْكَوَاكِبِ \* وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ \* لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ \* إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ ثَاقِبٌ) «وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» أى فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

[٧] (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ)

[٨] (تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

[٩] (قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

[١٠] (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

[١١] (فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(١) [٣٧ / الصافات / ٦ - ١٠] .

« وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى المرجع ذلك العذاب المحرق .

قال الناصر : هذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين ، استطرده ذلك وعيد الكافرين عموماً .

« إِذَا أَلْتَمُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً » أى لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها ، الأصوات المنكرة المنافية لأصوات الأناسى ، أو لأنفسهم . فإنهم بصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت ، كقوله (١) (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) . أولها نفسها، تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيخ بالشهيق ، وهو الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة ، كصوت الحمار .

« وَهِيَ تَقُورٌ » أى : تغلى بهم وتعلو .

« نَكَادٌ تَمِيْزٌ مِنَ الْغَيْظِ » أى تفرق أجزاءها من الغيظ على الذين أغضبوا الله ورسوله .

شبهت فى شدة غليانها ، وقوة تأثيرها فى أهلها ، بإنسان شديد الغيظ على غيره ، مبالغ فى إيصال الضرر إليه ، فتوهم لها صورة كصورة الحالة المحققة الوجدانية ، وهى الغضب الباعث على ذلك . واستعير لتلك الحالة المتوهمة الغيظ - كما فى شرح المفتاح الشريفي - وأما ثبوت الغيظ الحقيقي لها ، بخلق الله فيها إدراكاً ، فبحث آخر . لكنه قد قيل هنا : إنه لا حاجة إلى ادعاء التجوز فيه ، لأن (نكاد) تأباه ، كما فى قوله (٢) : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ) وقد صرح به علماء المعاني فى بحث المبالغة والغلو . وجوز أن يراد غيظ الزبانية . فالإسناد مجازى ، أو على تقدير مضاف - كما فى (العناية) - .

« كَلِمَاتٍ أَلْفِي فِيهَا فَوْجٌ » أى : جماعة من الكفرة « سَأَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمٌ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » أى : فى الدنيا ينذركم هذا العذاب .

قال فى (الإكليل) : استدل به على أنه لا تكليف قبل البعثة .

(١) [ ١١ / هود / ١٠٦ ] . (٢) [ ٢٤ / النور / ٣٥ ] .

« قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » أى : فكذبنا الرسل ، وأفرطنا فى التكذيب ، حتى تقيما الإنزال والإرسال رأساً ، وبالغنا فى نسبتهم إلى الضلال .

« وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ » أى : من النذر ما جاءت به ، سماع طالب الحق ، وعقل من نبد الهوى « مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ » أى : فى عداد أهل النار .

### تنبيهان :

الأول - قال الناصر : لو تفتن نبيه لهذه الآية لمدهادليلا على تفضيل السمع على البصر ، فإنه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

الثانى - قال ابن السمعاني فى ( القواطع ) : استدل به من قال بتحكيم العقل .  
وقال الزمخشري : قيل إنما جمع بين السمع والعقل ، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل .

« فَأَعْتَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُخِّقَ لِأَصْحَابِ السَّمِيرِ » أى : فأقروا بجدهم الحق ، وتكذيبهم الرسل ، فبمدأ لهم ، اعترفوا أو أنكروا ، فإن ذلك لا ينفعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ( إِنْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ )

« إِنْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ » أى يخافونه أو يخافون عذابه ، وهم لم يروه « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ وَعَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ )

« وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ » إِنَّهُ وَعَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ « أى بضائرهما ، فكيف بما نطق به ؟ والمعنى : فاتقوه واخشوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » أى : ألا يعلم السر والجهر ، من خلق الأشياء ، والخلق يستلزم العلم كما قال : « وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » أى اللطيف بمبادئه ، الخبير بأعمالهم . وقيل : معنى الآية : ألا يعلم الله من خلقه ، وهو بهذه المثابة (من) مفعول ، والعائد مقدر . قال الغزالي : إنما يستحق اسم اللطيف من يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، ومالطف منها ، ثم يسلك في إيصال ما يصلحها سبيل الرفق ، دون العنف . و (الخبير) هو الذى لا يعزب عن علمه الأمور الباطنة ، فلا تتحرك في الملك والملكوت ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس ، إلا وعنده خبرها . وهو بمعنى المليم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا » أى لينة سهلة المسالك . « فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا » أى : فى نواحيها وجوانبها على التشبيه . قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : لأن نواحيها نظير مناكب الإنسان التى هى من أطرافه . « وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » أى التمسوا من نعمه تعالى . قال الشهاب : فالأكل والرزق ، أريد به طلب النعم مطلقاً ، وتحصيلها أكلاً وغيره . فهو اقتصار على الأهم الأعم ، على طريق المجاز أو الحقيقة . قال : وأنت إذا تأملت نعيم الدنيا ، وما فيها ، لم تجد شيئاً منها على المرء غير ما أكله ،

(١) انظر الصفحة رقم ٧ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وما سواه متمم له ، أو دافع للضرر عنه .

« وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » أى : نشوركم من قبوركم للجزاء .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى قوله تعالى ( فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا )

الأمر بالتسبب والكسب .

وقال ابن كثير : فى الآية تذكير بنعمته تعالى على خلقه فى تسخير له الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ، ومواضع الزرع والثمار . والمعنى : سافر واحيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها ، فى أنواع المكاسب والتجارات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( أَمْنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ )

[١٧] ( أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ، فَسَتَعَلَمُونَ كَيْفَ

نَذِيرٍ )

« أَمْنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ » خطاب للكافرين . أى أمنتهم

العلیّ الأعلى أن يخسف بكم الأرض فيغيبكم إلى أسفل سافلين . « فَإِذَا هِيَ تَمُورُ » أى :

تضطرب وتهتز هزاً شديداً بكم ، وترتفع فوقكم ، وتنقلب عليكم .

« أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا » وهو التراب ، فيه الحصباء

الصفار ، « فَسَتَعَلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ » قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى عاقبة نذيرى لكم ، إذا كذبتهم به ،

ورددتموه على رسولى .

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء التاسع والعشرين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

وقد بين تعالى نذيره لهم في غير ما آية ، وهو زهوق باطلهم إذا أصروا ، ونصر رسوله ، وغلبة جنده ، كما قال تعالى (١) «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» .

قال الشهاب : (النذير) مصدر ، والياء محذوفة ، والقراء مختلفون فيها : فمنهم من حذفها وصلاً ، وأثبتها وقفاً ، ومنهم من حذفها في الحالين اكتفاء بالكسرة وكذا الحال في (نكير) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

[١٩] (أَو لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

«وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أى مع كونهم أشد منهم عدداً وعدداً «فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» أى نكيرى تكذيبهم . وذلك بإزالة العذاب بهم ، ودحر باطلهم .

قال القاضى : هو تسليية للرسول ﷺ ، وتهديد لقومه المشركين .

«أَو لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ» أى باسطات أجنحتهن في الجوّ عند

طيرانها ، «وَيَقْبِضْنَ» أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وقت ، للاستظهار .

ولتجدده عبر عنه بالفعل ، إشارة إلى أنه أمر طارئ على الصف . يفعل في بعض الأحيان

للتقوى بالتحريك . كما يفعله الساجح في الماء ، يقيم بدنه أحياناً ، بخلاف البسط والصف ،

فإنه الأصل الثابت في حالة الطيران ، ولذا اختير له الاسم .

«مَا يُمْسِكُهُنَّ» أى فى الجو «إِلَّا الرَّحْمَنُ» أى المفيض لكلِّ ما قدّره ، حسب

استعداده بسمة رحمته . ومنه ما دبر للطيور من بنية يتأتى منها الجرى فى الجوّ .

«إِنَّهُ وَبِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» قال القاشانى : أى فيعطيه ما يليق به ، ويسويّه بحسب

مشيئته ، ويودع فيه ما يريد بمقتضى حكمته ، ثم يهديه إليه بتوفيقه .  
ثم بكت تعالى المشركين ، بنفى أن يكون لهم ناصر غيره سبحانه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ( أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ،

إِنِ الْكٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ )

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ » أى معشر المشركين « يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ » أى إن أراد بكم سوءاً ، فيدفع عنكم بأسه . « إِنِ الْكٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ » أى من ظنهم أن أربابهم تنفع أو تضر . أو أنها تقر بهم إلى الله زلفى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ( أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ

وَنُفُورٍ )

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ » يعنى المطر ونحوها « بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ » أى تمادوا « فِي عُتُوٍّ » أى عناد وطغيان « وَنُفُورٍ » أى شراد عن الحق واستكبار ، مع وضوح براهينه ، فأصرُّوا على اعتقاد أنهم يُحفظون من الفوائد ، ويُرزقون ببركة ألهتهم ، وأنهم الجند الناصر الرازق ، مكابرة وعنادةً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ )

« أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

تمثيل للضالين والمهتدين . و ( المكب ) هو المتعثر الذي يخرّ على وجهه لوعورة طريقه ، واختلاف سطحه ارتفاعاً وانخفاضاً . والذي يمشى سويّاً هو القائم السالم من العثار ، لاستواء طريقه ، واستقامة سطحه .

قال القاضي : والمراد تمثيل الشرك والموحد بالسالكين ، والدينين بالمسلكين . ولعل الاكتفاء بما في الكَبّ من الدلالة على حال المسلك ، للإشعار بأن ماعليه الشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً . أى : فلذلك ذكر المسلك في الثاني دون الأول .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] ( قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ )

[٢٤] ( قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )

[٢٥] ( وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

[٢٦] ( قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ )

« قُلْ هُوَ » أى المستحق للعبادة وحده ، وسلوك صراطه « الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى العقول والإدراكات « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى باستعمالها فيما خلقت له « قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم فيها لتعبده ، وتقوموا بالقسط الذى أمر به « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى للجزاء « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى الحشر أو الفتح على رسوله وظهور دينه « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى الإنذار به ، والترهيب منه « قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بين الحجّة على ما أنذركم به ، من زهوق باطلكم إذا جاء أجله . وأما تعيين وقته ، فليس إلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ )

« فَلَمَّا رَأَوْهُ » أى : ما وعدوا به من العذاب ، وزهوق باطلهم « زُلْفَةً » أى : قريباً ، أو ذا زلفة ، أى قُرْب « سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى ظهر عليها آثار الاستياء من السكابة والنم والانكسار والحزن « وَقِيلَ » أى لهم تبكيता « هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ » أى تطلبون وتستمتعجون به ، من الدعاء ، أو تدعون أن لا يبعث ، من ( الدعوى ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ )

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » كان كفار مكة يتربصون بالنبي ﷺ ريب المنون ، تخلصاً من دعوته وانتشارها ، فأمر أن يقول لهم ذلك . أى أخبرونى إن أمانى الله ومن معى من المؤمنين ، أو رحمتنا بتأجيل آجالنا وانتصارنا ، فمن يجيركم من عذاب أليم قضى الله وقوعه بكم لكفركم ؟ .

قال ابن كثير : أى خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا بالتوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ماتتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمتنا ، فلا مناص لكم من عذابه ونكاله الواقع بكم . والمعنى بالعذاب : إما الدنيوى ، وهو خزيهم بالانتصار عليهم ، ودحور ضلالهم . أو الأخرى ، وهو أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ ء وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسْتَعْمَلُونَ مَن هُوَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ )

« قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ ء وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا » أى اعتمدنا فى أمورنا ، لا على ما تتكلمون عليه من رجالكم وأموالكم . « فَسْتَعْمَلُونَ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى ذهاب عن الحق ، وانحراف عن طريقه منا ومنكم ، إذا جاء نصر الله والفتح فى الدنيا ، ونشأته الثانية فى الأخرى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ )

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا » أى غائراً لا تناله الدلاء ، أو ذاهباً فى الأرض « فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ؟ » أى جار ظاهر سهل التناول .

قال الرازى: المقصود تقريرهم ببعض نعمه تعالى، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر. أى: أخبرونى إن صار ماؤكم ذاهباً فى الأرض ، فمن يأتىكم بماء معين ؟ فلا بد وأن يقولوا : هو الله . فىقال لهم حينئذ : فلم تجملون من لا يقدر على شىء أصلاً ، شريكاً له فى العبودية . وهو كقوله تعالى (١) : ( أَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ؟ ) أى بل هو الذى أنزله وسلكه يباع ، رحمة بالعباد ، فله الحمد .

(١) [ ٥٦ / الواقعة / ٦٨ ] .